نحن والإنجليز والسلام العالمى !

قال أحد فلاسفة الرومان : « لا تكره عدوك ولا تتظاهر له بالمودة ، بل اجتهد كل الاجتهاد أن تفهمه » . وتلك حكمة مأثورة تناقلتها العصور ، حتى أصبح من الثابت فى العصر الحاضر أن « فهم الخصم نصف المعركة ! » . ونحن إذا أدركنا حقا المعانى القريبة والبعيدة التى تحملها هذه الحكمة ، وبنينا عليها علاقتنا بالإنجليز ، لاستطعنا أن ننتصر عليهم فى معركة الحرية ، وأن نخرج منها فائزين بسائر حقوقنا .

تدعو هذه الحكمة قبل كل شىء إلى عدم كراهية العدو . وقد يبدو ذلك فى نظر الكثيرين أمراً مثاليا غير طبيعى . ولكنه ينبنى فى الواقع على تفكير عملى إيجابى . فالكراهية عمياء بطبيعتها ، تضع حجابا قاتما بين المرء وخصمه ، فلا يعرف شيئا عن خططه ونواياه ، ولا يقف على ما فى خلقه من نقط القوة ومن نقط الضعف . كما تدفع به الكراهية بسهولة إلى هاوية الاستفزاز . ما أيسر ما يستفزه الخصم ، ويقوده من كراهيته العمياء إلى ارتكاب الأعمال الطائشة أو السابقة لأوانها . وقد يستدرجه إلى معركة لم يستعد لها ، ولم يختر وقتها ، أو يستكمل عوامل نجاحها . وتبدو لنا خطورة مثل هذا الاستفزاز إذا تذكرنا أسلوب الإنجليز التقليدى فى الاعتماد على « العملاء المحرضين » الذين يقوم عليهم صرح المخابرات البريطانية . ويعهد إليهم بتنفيذ المؤامرات والحوادث المدبرة . لاتخاذها ذريعة للتدخل ومبرراً للعدوان . وقد أتقن الإنجليز هذا النوع من الحوادث . وما برح المصريون يذكرون حادث ١١ يونيو ١٨٨٢ ، الذى استفز إليه أهل الإسكندرية باعتداء مالطى على مصرى .

أما التظاهر للعدو بالمودة ، أو محاولة كسب صداقته ، فهذه هى الأخرى سياسة خرقاء ، تقوم على حسن النية والبساطة ! فطالما أن هناك من العوائق المادية والمعنوية ما يمنع قيام مثل هذه الصداقة ، وطالما يصر العدو على ابقاء هذه العوائق ، يكون من العبث التلويح له بالصداقة ، أو تعليل النفس بها . وكم كان عجبا أن يعود أحد الزعماء المصريين بعد قطع المفاوضات مع بريطانيا قائلا : « نحن خسرنا المعاهدة وكسبنا صداقة الإنجليز » ليقصى عن الحكم حال عودته إلى أرض الوطن ! وقد غاب عنه ، وعن غيره من سياسى العهد القديم أن التغنى بالصداقة حيث لا صداقة نغمة شاذة لا تغير ما فى نفس الخصم ، طالما هو يشعر أنه فى غنى عن مثل هذه الصداقة بهيمنته على أمورنا إلى حد يستطيع معه أن يعاملنا لا كشعب صديق ، بل كشعب تابع ، يستعين على حكمه بأصدقاء « خصوصيين » من أدواته وأعوانه !

بين هذين النقيضين العاطفين ، الكراهية والتغنى بالصداقة ، كانت المدرسة السياسية القديمة تتذبذب وتتخبط . وقد ارتبط هذا التخبط أوثق ارتباط بحالة المفاوضات المفرغة ، وبوجود الأحزاب داخل الحكم أو خارجه ! فيوم يوجد الحزب فى الحكم يتغنى بصداقة الإنجليز ، ويحرص على مودتهم ، ويوم يقصى عنه يجاهر بالعداء والكراهية . وقد تكون هذه المجاهرة عن غير إيمان ، بل لمجرد لفت النظر !

ظلت الأمور تجرى على هذا النحو ، ورجال العهد القديم لا يبذلون جهداً يذكر لرسم سياسة ثابتة الأسس ينهجونها فى علاقتهم بالإنجليز . ولم يحاولوا قط أن يفهموا الإنجليز كأفراد ، وكشعب ودولة . ولو كانوا قد فعلوا ذلك ، لتبينوا نواحى القوة فيهم ونواحى الضعف ، ولتجنبوا

بذلك الكثير من الأخطاء ، ولقامت الحركة الوطنية تحت زعامتهم على أسس سليمة ووسائل كفاح جدية !

لقد ظل سياسيو العهد القديم يعاملون الانجليز على أنهم قوم منطق . بينما هم لم يكونوا فى يوم من الأيام كذلك ! بل هم بنوا أمبراطوريتهم الضخمة على تجاهل هذا الذى نسميه بالمنطق . ونحن نضحك من أنفسنا ولاشك كلما نحاول اقناعهم بالمنطق أن من حقنا أن نعيش أحراراً وليس لهم أن يسلبونا هذا الحق . والانجليز ليسوا فى حاجة لأن يأخذوا درساً فى المنطق من المصريين أو سواهم . وهم يعرفون حقوقنا أكثر مما نعرفها ولكنهم مع ذلك سلبوها متعمدين لأن مصلحتهم المادية قضت أن يسلبوها .

ومن جهة أخرى ظل سياسيو العهد القديم حريصين على تملق الإنجليز بالمجاملات ، مع أن الإنجليز لم يكونوا فى يوم من الأيام قوم مجاملة ! وهم إن درجوا على تقديم المجاملات إلى سواهم ، وإن لم يتورعوا عن تقديمها لفريستهم عند الانقضاض عليها ، إلا أنهم لايأكلون قط مما يقدمه لهم الغير من مجاملات . لأنهم شعب تجارى بطبعه . والتاجر يحرص على مجاملة الزبائن ؛ ولكنه لايقبض منهم مجاملات ... هى ليست فى نظره « عملة » بل عاطفة رخيصة زائفة !

تلك حقائق لاندرى كيف غابت عن السياسيين المصريين فى الأطوار السابقة للحركة المصرية . وما نظن أحداً يتتبع تاريخ الامبراطورية البريطانية ، ويدرس نفسية الشعب البريطانى ، إلا ويلمس هذه الحقائق ! فالإنجليز لايؤمنون بمنطق ولا بمجاملة ؛ ولايتورعون عن أن يقلبوا الأسود أبيضا . والأبيض أسودا ، متى وجدوا مصلحتهم المادية فى هذا ! وما أيسر ما يبتدعون القضايا المنطقية لهدم المنطق كلية . ولتشويه

الحقائق . فالإنجليز يوم دخلوا مصر لم يدخلوها لحماية العرش ؛ أو لصيانة أرواح الأجانب الخ . . وإنما هم دخلوها لأن مصلحتهم المادية قضت أن يدخلوها . وظلوا فيها إلى اليوم ؛ لأن مصلحتهم المادية اقتضت البقاء فيها ! .

فإذا أردنا أن نخرج الإنجليز من وادى النيل شماله وجنوبه ؛ وجب علينا أن نفهم تماما مصلحتهم الحقيقية فى البقاء ؛ ثم نعمل على تفويت هذه المصلحة عليهم ؛ حتى نجعلهم يدركون بلغة الواقع الملموس أنهم إنما يغرمون من هذا البقاء أكثر مما يغنمون . ولو استطعنا هذا ؛ وثبتنا عليه لوجدنا الإنجليز مع مرور الوقت يفكرون من تلقاء أنفسهم فى الجلاء ؛ لأن مصلحتهم المادية ستصبح فى هذا . إذا كان غرض الإنجليز من البقاء فى مصر هو تأمين مواصلاتهم الامبراطورية ؛ كان علينا أن نشعرهم بلغة الواقع الملموس أن فى إستطاعتنا أن نجعل هذه المواصلات غير مأمونة. وإذا كان غرضهم هو التوسع الاقتصادى ؛ كان علينا أن نغلق أبوابنا فى وجه مستثمراتهم وبضائعهم ؛ ونشعرهم بكل الوسائل أنهم لن يستطيعوا أن يربحوا من مصر المستعبدة مليما . وإذا كان غرضهم هو القواعد الاستراتيجية ؛ كان علينا أن لا نتركهم يقيمون مثل هذه القواعد بخاماتنا وبسواعد عمالنا ؛ وأن نجعل حياتهم فيها جحيما لا يطيقونه طويلا !

نحن إذا استطعنا أن نفوت على المستعمر المحتل كل مصلحة له فى البقاء فى أراضينا . وكنا على أتم استعداد لمواصلة تنفيذ هذه الخطة ؛ واحتمال ماتتطلبه من جهود وتضحيات . . نحن إذا لم نترك للوصوليين الذين يدينون بمراكزهم الاستثنائية إلى الرجعية والاستعمار أقل فرصة للامساك بزمام أمورنا ؛ أو التسلل إلى صفوف زعامتنا الوطنية ؛ لم يجد المستعمر ثغرة واحدة فى صفوفنا . ولوجد مصلحته المادية فى الجلاء سريعاً

عن أراضينا ؛ طالما هو لايستطيع أن يحقق بالبقاء ما كان يظفر به من قبل من المصالح المادية ؛ ولا يجد سنداً من الوصوليين والاستغلاليين الذين كانوا يشتركون معه فى اقتسام الأسلاب واستغلال النفوذ على حساب كتلة الشعب البائس ! .

نحن إذا وطنا العزم على أن نعيش أحراراً ، استطعنا انتزاع حريتنا انتزاعا . ومهما لجأ المستعمر وأدواته إلى وسائل الكبت والقمع ، فهو لن يستطيع إذا صمدنا فى كفاحنا أن ينال من حريتنا منالا ! وأيا كانت قوته وعدته ، فهما لن يصلا إلى الحد الذى يستطيع معه أن يضع على رأس كل مواطن حارسا يجبره على أن يعمل له كعبد ، أو على أن يحقق له مصالحه وأغراضه ! إن المعركة ضد الاستعمار إنما تقوم على الإصرار والصلابة . . على الإستمرار فى الكفاح واحتمال الخسائر ! ولقد لقن الشعب الارلندى الشعوب المكافحة الأخرى دروسا رائعة فى هذا الإصرار فاستمر فى حركته التحررية عقب الحرب العالمية الأولى بلا مهادنة وبدون هوادة . وعلى الرغم مما لجأ اليه الانجليز من أفظع وسائل القمع ، أبى الارلنديون إلا أن يواصلوا حركتهم ، ولم يتراجعوا قيد خطوة حتى اضطروا الانجليز إلى الجلاء إزاء ما تكبدوا من نفقات باهظة وخسائر !

نحن لن ننتصر على الإنجليز الذين عرفوا بشدة الإصرار ، إلا إذا كنا أشد منهم إصرارا وصلابة . . إلا إذا فهمنا طبيعة إصرارهم العجيب والفريد فى نوعه ، بحيث لاتترك أنفسنا ننخدع بمظهره الخداع ، الذى يكاد يحجبه عن الأنظار فى حالات كثيرة ! ذلك أن الإنجليز لا يبدون فى إصرارهم متحمسين ولا جامدين . وهذا الإصرار لا يسلبهم قط ما يتسلحون به من برود ومرونة . فإذا اضطرتهم الظروف إلى أن يلفوا ويدوروا ، لفوا وداروا دون أن ينعرفوا عن الهدف أو يحيدوا . وقد

يبدو لنا أنهم قد انحرفوا وحادوا ، فيتركوننا نقع فى هذا الخطأ ، ويظلون محتفظين ببرودهم المعهود الذى يكتمون به حقيقة شعورهم ونواياهم . وهم بهذا البرود ، الذى يتحكمون به فى شعورهم وأعصابهم ، يعدون بحق أقدر شعوب الأرض على احتمال النكبات والهزائم ، وعلى استغلال الفرص فى أنسب اللحظات وبأسرع الوسائل . وهذا ما نلمسه بوضوح فى تاريخ الشعب الإنجليزى الذى استطاع أكثر من مرة أن يخرج بأعصابه بسلام من أعصب الأوقات ، وأحرج المواقف . تلك الأعصاب الفولاذية هى وحدها التى تجعل عامل الوقت دائما فى صالح الإنجليز ، لأنهم بقدرتهم على الاحتمال ينتظرون حتى يخطىء الخصم ، أو حتى يستدرجوه إلى الخطأ ليستفيدوا من وقوعه فيه ، وليسووا حسابهم معه جملة متى نالوا منه منالا .

هذه النواحى فى خلق الشعب الإنجليزى يجب أن نفطن إليها دائما . وأن نضعها باستمرار نصب أعيننا فلا نخدع بما يقدمون من مجاملات ويلوحون به من صداقة ، ما لم يقدموا الدليل الوحيد الأكيد على تلك الصداقة ، بالجلاء جلاء عاجلا ناجزا عن أراضينا . ولئن كان الإنجليز لم يظهروا تبرما بما حققنا فى عهدنا الجديد من قضاء على الرجعية ، فهم ما زالوا يعللون النفس بإمكانيات استنادهم إلى الوصولية والنفعية التى لم نوفق بعد إلى القضاء عليها تماما ! ولا شك أنهم ينتظرون ليروا تطورات جبهتنا المدنية . التى لم تكن قد تماسكت بعد واتحدت يوم ضربت الجبهة العسكرية ضربتها . والتى يجب أن نحرص على تماسكها واتقائها من الانهازية والانتكاسية حتى لا يجد الانجليز ثغرة ينفذون منها إلينا . فيأخذوننا بأخطائنا ونقط الضعف فينا . وإذا حدث أن أخطأنا ، يجب

أن نكون نحن الأسرع إلى تدارك الخطأ منهم إلى استغلاله !! مما يتطلب منا التسلح باليقظة الدائمة ، مع سرعة التصرف والمرونة .

إن بيننا وبين الانجليز حساب لانستطيع تسويته مالم تكن جبهتنا الداخلية قوية سليمة . وبقدر توفيقنا فى تقوية هذه الجبهة وتطهيرها يكون توفيقنا فى تسوية هذا الحساب الذى يحسن الإنجليز صنعا لو بادروا إلى تسويته كخصوم شرفاء يحترمون القوى ، ويواجهون الحقائق ! لقد عجم الانجليز عود المكافح المصرى فى حركة القنال التى أعقبت إلغاء المعاهدة وأدركوا بلغة الواقع الملموس أنهم لايواجهون قطيعاً من الهتافين ، بل شعبا مكافحاً تسلح فى طور كفاحه الجديد بفلسفة كفاح عملية سليمة ! ولانظنهم بعد هذا من الخطل بحيث يصرون على البقاء فى أراضينا . بل هم بدأوا ينفون عن أنفسهم كل غرض فى هذا البقاء ، متذرعين بحجج أخرى ووسائل مستحدثة ، محاولين الاعتماد على تأييد الدول الديموقراطية الكبرى لهم باسم الأحلاف المشتركة ، والخطط الاستراتيجية والدفاع عن العالم الديموقراطى !

لقد عجز الإنجليز عن إجبارنا على التحالف معهم تحالفاً ثنائياً وأجمع الشعب على رفض فكرة الدفاع المشترك . وقد حاولت بريطانيا أن تزج بحلفائها فى تسوية هذا الموقف ، فتقدمت حكومتها بالاشتراك مع حكومات الولايات المتحدة الأمريكية وتركيا وفرنسا بمشروع رباعى للدفاع عن الشرق الأوسط . لم يأبه الشعب المصرى بهذه المناورة ، وبادر إلى رفض المشروع ، لا لأنه شعب سلبى متعنت ، بل لأنه شعب يحرص على السلام العالمى ، ويخلص فى العمل على صيانته بكل الوسائل ! وما كان شعب مصر ليفكر فى أن يعيش فى عزلة عن العالم ، أو فى أن يتخلف عن ركب الإنسانية . . . إنما هو يرغب فى أن يعيش مع الدول الأخرى فى سلام ، ويتعاون معها على

مافيه خير الإنسانية ، والمحافظة على تراث مدينتها ، وضمان مستقبل أجيالها القادمة !

مثل هذا المشروع للدفاع المشترك عن الشرق الأوسط . إما أن يكون من أحلاف الاستعداد للحرب . وإما أن يكون لصيانة السلام العالمى بإقامته على أسس عادلة وطيدة . فإذا كان من النوع الأول . فنحن كشعب مسالم لا يضمر العداء لأحد ، ولا يحب أن ينحاز لمعسكر دون آخر . لا يسعنا إلا أن نرفضه شكلا وموضوعا . وإذا كان المشروع من النوع الثانى ، فنحن إنما ندرسه من زاوية ماتعتقد مخلصين أنه أنسب الطرق وأجداها لصيانة السلام العالمى

إن أجدى هذه الطرق فى نظرنا هو أن نتكتل تكتلا محايدا مع الدول الصديقة الراغبة مثلنا فى السلام ، والتى تستطيع أن تؤلف معسكراً ثالثاً يتوسط مابين المعسكرين المتنافرين ، ولا يشجع أحدهما على الاصطدام بالآخر . وكلما كان هذا المعسكر كبيراً يتألف من عدد كبير من الدول ، ويمتد إلى رقعة واسعة ، كلما ازدادت إمكانيات المحافظة على السلام . أما إذا انقسم العالم إلى معسكرين لا ثالث لهما ، فمن يقرب وجهات النظر بينهما ، ومن يعمل على تسوية ماينشب بينهما من خلاف ، ويبدد عوامل الخطر فى الوقت المناسب قبل أن تتفاقم وتؤدى إلى نشوب الحرب .

إن وجود مثل هذا المعسكر المحايد أمر ضرورى للمحافظة على السلام ! وهو من جهة أخرى يكفل الابقاء على التراث البشرى للمدنية حيث أن وجود رقعة كبيرة من العالم بعيدة عن أن تمتد إليها الحرب بأسلحتها الفتاكة المروعة ، وبدمارها الشامل ، إنما يضمن بقاء هذه الرقعة بعيدة عن الدمار والتخريب ، فنحافظ بذلك على تراث المدنية ونصوص مستقبل أجيالنا المقبلة !

ليست الرغبة فى الحياد إذن بالرغبة السلبية أو بالمبنية على الخوف والأنانية . وإنما هى وسيلة إيجابية للمحافظة على السلام . وإذا كان من المستحيل أن تحتفظ دولة واحدة بحيادها ، إلا أن الدول الراغبة فى الحياد تستطيع إذا تكتلت وتعاونت أن تضمن حيادها ، وتجبر الدول المعتدية على احترامه دائماً . تلك هى سياسة الهند والكثير من دول الشرق الأوسط ؛ كما أن سياسة الدول الاسكندنافية وبعض الدول الأخرى تتجه أيضاً هذه الوجهة ، مما يشجعنا على المضى فيها والتمسك بها !

هذه هى وجهة نظرنا نبسطها بصراحة راجين أن يأخذها أصدقاء الغرب على محمل حسن . وهم ولا شك إذا فكروا فى موقفنا هذا تفكيراً موضوعيا على ضوء الصالح العام ، وليس على ضوء مصالحهم الاستراتيجية الخاصة ، وإطماعهم التوسعية ، لرأوا فى سياستنا هذه أجدى الوسائل لصيانة السلام ، إذا كانوا حقاً يريدون السلام ، ونحن من جانبنا وقد تكتلنا تكتلا إقليميا فى ميثاق الضمان الجماعى ، لن نرفض أى عون يقدم إلينا لهذا الغرض ، وفى حدود ميثاق الأمم المتحدة . ولكننا حريصون على أن لا نربط بين هذا الميثاق وبين حلف الأطلنطى ، أو معاهدة الصلح اليابانية ، كما يريد حلفاء الغرب لسد الفجوة الاستراتيجية فى خططهم .

لقد مضى الزمن الذى كانت تكيف فيه أقدار الشعوب وحرياتها للخطط الاستراتيجية للدول الكبرى ، ولا بد لهذه الدول إذا أرادت كسب صداقة الجميع واحترامهم ، أن تكيف خططها الاستراتيجية بما يتناسب مع حريات الشعوب . وما كانت لتستطيع صيانة الحرية والسلام إلا بالتعاون مع شعوب حرة مسالمة !